



المجتمع المدني في التاريخ الغربي والإسلامي .. إشكالية المفهوم والممارسة

نادية للمكيّة

مع تزايد أعداد البشر وتداخل مصالحهم زادت الحاجة إلى تنظيمات وقوانين تؤطر لتلك العلاقات المتشابهة بين الأفراد؛ لهذا بدأ الإنسان بالبحث والتنظير لقواعد تبني علاقات اجتماعية فاعلة، تتعدى إطار الأسرة والشيخ والقبيلة، وتحاول أن تنهي الصراعات القائمة، وتحقق السعادة، وتضمن حقوق الحرية والمساواة، وتقف في وجه السلطة والدكتاتورية التي تحول دون تحقيق ذلك؛ لهذا بدأت الفلسفات الحديث عن مجتمع مدني مبني على مشاركة الجميع وتنظيم الأفراد أنفسهم. وجيه كوثراني أستاذ التاريخ الحديث بالجامعة اللبنانية، درس تلك العلاقة بين مفهوم المجتمع المدني وبين صورته وانعكاساته في التاريخ الغربي والإسلامي في مقاله:

مبرراً، خصوصاً مع معرفة المسلمين بنظام المدينة والمدنية.

ويلج كوثراني التاريخ الإسلامي بحثاً عن عناصر بديلة كانت تؤدي أهداف المجتمع المدني وتشكل عناصره تماماً كما عرفها التاريخ الغربي بدءاً لتأصيل المفهوم في الحضارة الإسلامية، مشيراً إلى وجود تاريخ غني بالمصادر على عكس ما اعتقده الباحثون من كون الدولة الإسلامية طاغية وتعاضد الاستقلال، وقد خلاص كوثراني في حديثه إلى ثلاثة تكوينات رئيسة يمكن عدّها صورة للمجتمع المدني:

- الأمة بوصفها إطاراً عقائدياً وفكرياً وسلوكياً للجماعة لم تندمج كلياً في الدولة، بل كانت تمارس استقلالاً نسبياً، وبقيت العلاقة بين الأمة والطوائف من جهة، وبينها وبين أهل الدولة من جهة أخرى علاقة وساطة لا اندماج.
- وجود مؤسسة دينية رسمية في الحكم الإسلامي لم يجعل الفقهاء والعلماء تابعين لها بصفة رسمية؛ فبقوا يتفاعلون مع المجتمع ويشكلون مدارسهم خارج نطاق السلطة.
- ظهر لكل حرفة أصولها وتنظيمها، فأصبح أصحاب الحرف والطوائف يملكون هيكلهم التنظيمي الخاص ويعملون بوساطة بين المجتمع والدولة.
- برزت تكوينات لعبت دور الوسيط بين الأمة والسلطة من نحو: المسجد، العلماء، مؤسسات الوقف، وشكلت مؤسساتها الخاصة وتنظيمها المنفصل نسبياً عن السلطة.

لقد حاول كوثراني بمنهجية البحث التاريخي والاجتماعي التأصيل لمفهوم المجتمع المدني في الوقت الذي بقيت فيه بعض الدراسات العربية تخوض الجدل الفكري التنظيري، وتحمل هذه الدراسة أهمية من جانبين: الأول كونها تبحث عن الدلال العلمية لتأصيل المفهوم في التاريخ العربي، والثاني كونها تأسس لبناء جهود أكبر في سبيل غرس مفهوم المجتمع المدني وإعادة إحيائه في العالم العربي.

صحيحاً لما تكبّد عناء تتبع المفهوم عبر مراحل الزمنية والمكانية أيضاً!

ولئن كان كوثراني يرى غياب المفهوم في الحضارة العربية حتى وقت متأخر، فإن بعض الباحثين يعزو تأخر ظهور المصطلح في العالم العربي إلى غياب الفلسفة المفاهيمية الواضحة؛ فعلى الرغم من أن بعضاً من المفكرين والعلماء العرب زاروا دول أوروبا وكتبوا في وصفها كتباً منهم الطهطاوي في كتابه تخليص الإبريز في تليخيص باريز، فإن كتاباتهم لم تكن إلا وصفاً بعيداً عن التنظير الفلسفي لمفهوم المدنية والمجتمع المدني.

ولعل من أكثر التعريفات العربية تداولاً هو تعريف سعد الدين إبراهيم الذي عرف المجتمع المدني بأنه "مجموعة التنظيمات التي تنشأ بالإرادة الحرة لأعضائها والتي تملأ المجال العام بين الأسرة والسوق والدولة؛ بهدف خدمة مصلحة أو قضية أو التعبير عن مشاعر مشتركة بشكل رسمي يحترم حق الآخرين في أن يفعلوا الشيء نفسه". إذن؛ فالمفهوم قائم على 4 عناصر أساسية: أنها منظّمة، عملها إرادي حر، تهدف إلى تقديم خدمات، رسمية تحترم حقوق الآخرين والسلطة.

ويقترح الباحث بعد ذلك استخدام مصطلح "المجتمع الأهلي" إشارة إلى مظاهر العلاقة بين المجتمع العربي عوضاً عن "المجتمع المدني" لكونها لغة الخطاب السائد في التراث العربي من نحو: أهل المدينة، أهل الأمصار، أهل الحرف والصناعات... إلخ. ولكننا حين نقف على لفظة "الأهلي" فإننا نجدها تشير أيضاً إلى النطاق الضيق المتمثل في العائلة أو القبيلة أو الطائفة أو العقيدة، بينما مظاهر المجتمع المدني الإسلامي تعدت ذلك؛ إذ أسس الإسلام لعلاقات لا تشمل هذه الفئات فقط، منها الصدقة؛ فمع كونها ليست فرضاً واجباً فهي تمنح للفقراء ولبناء المرافق العامة وللمؤلفة قلوبهم من غير المسلمين... إلخ. وعليه؛ يكون استخدام لفظ "الأهلي" لتداول استخدامه في الخطاب الإسلامي ليس

وفي الوقت الذي يُحدث فيه الباحثون جدلاً حول مؤسس هذا المفهوم - بدءاً من أرسطو في مدينته المثالية، وانتهاءً بتعريفات المتأخرين - يقف كوثراني بعيداً عن الانتصار لأيٍّ منهم وقريباً من الفكرة فقط، يتتبع مراحل تطورها وارتباطها بالسياق التاريخي، محاولاً استيفاء كل المفاهيم المرتبطة بمصطلح المجتمع المدني مع تطوّر الأنظمة.

وكوثراني كغيره من الباحثين يربط نشأة مفهوم المجتمع المدني بالسياق التاريخي للحضارة الغربية، بالرغم من أنه في هذا المقال يحاول أن يؤطر لدراسة مستجدة للمفهوم في الحضارة الإسلامية، ومع كون الحضارة الإسلامية أسبق تاريخياً من حيث التنظيم الواضح - على الأقل - إلا أنه من الطبيعي أن تبدأ الدراسة حيث بدأ ظهور المفهوم في النصوص التاريخية.

وبعد دراسة تاريخية زمنية لتطور المفهوم، يطرح الكاتب سؤالاً مفصلياً: هل يمكن سحب مفهوم المجتمع بهذا المعنى إلى حقل المجتمعات الإسلامية وتاريخها؟ ويقف القارئ بحثاً عن المعنى الذي يُشير إليه الباحث؛ فقد كان يسرد تاريخ المفهوم دون أن يستوقفنا على معنى محدّد، بل اختصر ذلك السرد بقوله: "نمت فكرة المجتمع المدني... ولكن لم يجر حتى حينه تعريف محدّد لها!"

ثم انتقل كوثراني إلى بحث الاشتقاق اللغوي للمصطلح، مشيراً إلى أن اللغات الأجنبية تتطابق في الاشتقاق اللغوي والمفاهيمي للمصطلح، بينما تثير ترجمته إلى العربية إشكالات. والحقيقة أن هذا الافتراض يثير شكاً؛ فالمصطلح في اللغتين الفرنسية والألمانية مثلاً يحمل دلالتين مختلفتين؛ فالأول يحمل معنى "التعارض مع الدين، القائم على مناهضة الكنيسة"، أما في الفرنسية فيبدو مفهوم المجتمع المدني "مرادفاً للمجتمع السياسي؛ أي بصفته نظاماً قائماً على التشريع لتجمع من المواطنين". إذن؛ فهو يتحدد بالخصوصية الثقافية للمجتمعات، ومعها يصبح توحيد المعنى غير مقبول، ولو أن ما افترضه كان

«المجتمع المدني والمجتمع الأهلي في حضارتين: الغربية والإسلامية»؛ متوقفاً عند 3 محطات رئيسة: نشأة المفهوم وتطوره في الحضارة الغربية، محاولة سحب المفهوم إلى حقل المجتمعات الإسلامية، تنظيمات المجتمع التي ارتبطت بهذا المفهوم في التاريخ الإسلامي.

وكما يقول الباحثون، فإن فهم المصطلحات والمفاهيم لا يستقيم بانتزاعها من إطارها التاريخي؛ فالعطيات الثقافية والسياسية وحتى الاقتصادية هي من يشكّل أبعاد المفاهيم ويبينها نظرياً؛ لذلك يتتبع الباحث في أول مقاله مراحل تكوّن مفهوم المجتمع المدني في النصوص التاريخية بدءاً من الحضارة اللاتينية وانتهاءً بالقرن التاسع عشر فالقرن العشرين، جامعاً بين البحث التاريخي وبين التنظير لأحد حقول علم الاجتماع.

بدأ الباحث إذن بالدراسة الكلاسيكية، فقد اقترن مفهوم المجتمع المدني وقتها بالتصدي للنزعات النازية والفاشية التي شابت مجتمع الدولة في أوروبا، وبتطوير الديمقراطية الغربية تجاوراً لأزمات المجتمع. ثم ناقش كوثراني بصورة موسّعة تطوّر المفهوم عند المتقدمين في عصر الأنوار بعرضه لكتابات المفكرين وأصحاب النظريات الكبرى؛ فبين تلبية الاحتياجات المجتمعية والتصدي لضغط المؤسسات السياسية تظهر سلطة أخرى تفرض وجودها وارتباطها بكل تفاصيل الحياة في المجتمع الأوروبي وهي السلطة الدينية، وقد كان مشروع المجتمع المدني يقف وجهاً لوجه أمام هذا الحصار، ولهذا دعا جون لوك في رسالة التسامح إلى وجوب منح حق العيش والحرية والمساواة بوصفها إحدى أهم ركائز المجتمع المدني بالنظر إلى مفهومه في ذلك الوقت.

إذن؛ فقد ارتبط المفهوم في هذه المرحلة بنضال الشعوب من أجل الحرية والديمقراطية، وقد بدأت أشكال هذا التنظيم تظهر لاحقاً في النقابات والجمعيات بصورة "ردة الفعل" الموازية لانتهاكات السلطات المدنية والدينية.